

جدل الفقهاء حول مسألة تهنئة أهل الكتاب

التيجاني بولعوالي
باحث مغربي



قسم الدراسات الدينية

توطئة:

يتناول هذا البحث مسألة خلافية لدى العلماء والفقهاء المسلمين، وهي تهنئة أهل الكتاب وغير المسلمين بأعيادهم الدينية. وقد اجتهد الكثير من العلماء المسلمين المعاصرين، فأجازوا هذه المسألة ما لم يقصد منها تعظيم معتقدات غير المسلمين، غير أن ثمة علماء آخرين يتشبثون ببعض الفتاوى القديمة التي تحرم هذه المسألة، دون أن يراعوا السياق الجديد الذي شهد العديد من التحولات والتطورات، التي أدت إلى نشوء المجتمع المتعدد الثقافات والمعتقدات، حيث يتعايش الناس في إطار من المواطنة والتسامح والتعاون. مما يقتضي من المسلمين أن ينفثوا أكثر على الشرائح الاجتماعية غير المسلمة، وتقديم صورة إيجابية حول الدين الإسلامي، من خلال السلوك الحسن والإسهام الفعال. أما إذا تشبثوا ببعض التفسيرات التقليدية وطبقوها بشكل حرفي، فإن ذلك سوف يؤدي إلى تردي صورة الإسلام وتساعد الخوف من المسلمين. لذلك، جاء هذا البحث ليعالج هذه المسألة بشكل موضوعي وواقعي، لا يتعارض مع رسالة الدين الإسلامي السمحة، الداعية إلى الرحمة والتسامح والكرامة الإنسانية.

1- جدل فقهي حول تهنئة أهل الكتاب:

أثناء قدوم كل سنة ميلادية جديدة، يتكرر الكلام نفسه حول مسألة تهنئة النصارى وغير المسلمين بهذه المناسبة وغيرها من الأعياد الدينية؛ فتننتشر الفتاوى كشرر النار في المساجد ومختلف النوادي التي يرتادها المسلمون، وتنتب كالفطر عبر عالم الإنترنت والفضائيات، كأن علماء الإسلام وفقهاءه لم يفلحوا بعد في حل هذه النازلة، واستيعاب أسرارها العميقة، وتفكيك جوانبها المستغلقة!

هناك من يؤول تلك التهنئة بالتشبه بأهل الكتاب، فيسقط عليها أحكام التشبه معضدا وجهة نظره بمختلف النصوص الدينية مع أنها لا تمت بصلة وثيقة إلى ذلك. وهناك من يدعي أن تهنئة غير المسلمين تعني الاعتراف الضمني بمعتقداتهم، رغم أن القرآن الكريم أشار إلى معتقدات أهل الكتاب والمشركين، والرسول صلى الله عليه وسلم احترم غير المسلمين وتسامح معهم في أكثر من موقف. وهناك من يردد أن هذه التهنئة تنطوي على نوع من التعظيم لما يخالف عقيدة الإسلام من شرك وتثليث ورهبانية، كأن هؤلاء المهنيين لا يدركون أن تهنئتهم لا تقدم إلا من باب الاحترام والمجاملة والتسامح. وهناك من يرى أن هذا السلوك من شأنه أن يولد مشاعر الدونية والتبعية والانبهار بأعداء الإسلام، وغير ذلك من التأويلات غير المنطقية، التي تكاد تتعارض مع روح القرآن الكريم وجوهر الحديث النبوي الشريف، بل وتسيء توظيف أقوال العلماء والأئمة الأولين، عن طريق اجتنائها من سياقها الأصلي الذي قيلت فيه، وفصلها عن ظروفها الحقيقية التي صيغت فيها.

على هذا الأساس، يبدو أن صناعة العديد من الفتاوى المعاصرة تتم في غياب جملة من الشروط الجوهرية، التي يتطلبها هذا العلم الشرعي، وعادة ما يقتصر بعض المفتين على الشروط التقليدية دون أن

يأخذوا بعين الاعتبار واقع الفتوى، والعلاقات المستجدة مع غير المسلمين، والوجود الإسلامي الجديد في الغرب، الذي أصبح يستلزم مقاربة مغايرة لما هو سائد في العالم العربي والإسلامي. ثم إن بعض الدعاة ينسجون فتاواهم في ظل مقتضيات المذهب الذي ينتمون إليه، ويسعون بعد ذلك حثيثين إلى عولمتها وتطبيقها على جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم وسياقاتهم، وإذا ما تحفظ البعض على الأخذ بها تم التشكيك في عقيدته! وهذا ما يسري، بشكل أو بآخر، على بعض فتاوى تهنة أهل الكتاب، حيث ينطلق المفتي من مذهبه الفقهي، ومن الظروف الخاصة بالواقع الذي يعيش فيه، ليوجه فتواه إلى المسلمين في مختلف بقاع العالم دون النظر في السياقات المتباينة التي ينتظمون فيها، والعادات المختلفة التي تميز ثقافات البلدان التي يعيشون فيها.

ألم يقر الرسول صلى الله عليه وسلم عقائد أهل الكتاب والمشركين، رغم تعارضها مع حقيقة الإسلام؟ ألم يأت الإسلام ليجدد العقائد التوحيدية السالفة بعد أن طالتها أيدي التحريف والتزييف، ويُعدلها وينقيها من شوائب الشرك والكفر؟ ألم يصم الرسول صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء، الذي كان يصومه اليهود اقتداء بموسى عليه السلام، وقال بأنه أحق بموسى من بني إسرائيل؟¹ ألم يُصلِّ المسلمون أكثر من سنة قبل المسجد الأقصى إلى أن جاء أمر الله تعالى بتغيير القبلة إلى اتجاه مكة؟ ألم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم هدايا غير المسلمين، وأكل من طعام أهل الكتاب، وتعامل مع اليهود، رغم أن الله تعالى نعتهم في سورة المائدة بأنهم أشد عداوة على الذين آمنوا؟ ثم، ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين بخصوص تلقيح النخل: "أنتم أدرى بأمر دنياكم؟"²

غير أن بعض المسلمين يغضون الطرف عن هذه الإشراقات النبوية، ويتجاهلون هذه الجوانب السمحة من الإسلام، ليفسروها من منطلقات مذهبية وغير واقعية، تجعلهم يصرِّفون النظر عن هذه المواقف، أو يُضَعِّفون الشواهد الفقهية الدالة عليها، أو يُسقطون بعض النصوص على نوازل تقبل أكثر من تفسير وقراءة، كمسألة تهنة أهل الكتاب التي اختلف الفقهاء المعاصرون حولها، يتم ذلك دون أي تمييز بين الحكم الشرعي الثابت بالدليل والفتوى الخاضعة للتجدد والاجتهاد الفقهي حسب تبدل الأحوال والظروف. وأكثر من ذلك، فإن بعض الدعاة يتصدون للتأويل ويعارضون استعمال العقل في مختلف قضايا فقه العبادات والمعاملات، إلا أنهم يسمحون لأنفسهم بامتطاء سهوة التأويل واعتماد العقل في تنزيل النصوص على قضايا معاصرة، قد لا

1- حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث عن أيوب عن عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه". البخاري، أبو عبد الله، صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء، ح 2004، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط1423/1هـ - 2002م، ص 480

2- حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه وعمرو الناقد، كلاهما عن الأسود بن عامر، قال أبو بكر: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. وعن ثابت، عن أنس، أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ يقوم يلحقون، فقال: "لو لم تفعلوا لصلح". قال: فخرج شيصا، فمر بهم فقال: "ما لنخلكم؟" قالوا: قلت كذا وكذا، قال: "أنتم أعلم بأمر دنياكم". مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن، كتاب الفضائل، ح 2363، دار طيبة - الرياض، ط1426/1هـ - 2006م، 1110/2

تقتضي القياس وتستوجب تفسيراً نابعا من الواقع الخاص بها، مما يسبب البلبلة بين أوساط المسلمين، فتفتنهم إلى مزيد من الشيع والأحزاب.

2- بين التحريم المطلق والتجوز المنشود:

إن الفتاوى المرتبطة بمسألة تهنة النصارى بأعيادهم الدينية تنقسم إلى صنفين؛ أولهما يحظر ذلك السلوك، ويعتبره حراماً مطلقاً، وثانيهما يجوز هذا العمل ما لم يتعارض مع عقيدة الإسلام، ولم يؤد إلى تقديس معتقدات أهل الكتاب وغيرهم.

إن الذين يجرمون هذه المسألة لا يستندون في حكمهم إلى نص شرعي صريح من القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، وإنما إلى أقوال السابقين من العلماء والأئمة، التي نفسها تنبني على أعمال الرأي والقياس والتأويل. إن هذه التهنة، وفق إحدى الفتاوى "المعولمة" المشهورة، تعتبر "إقراراً لما هم عليه من شعائر الكفر، ورضى به لهم، وإن كان هو لا يرضى بهذا الكفر لنفسه، لكن يحرم على المسلم أن يرضى بشعائر الكفر أو يهنئ بها غيره؛ لأن الله تعالى لا يرضى بذلك، كما قال تعالى: (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)."، (الزمر: 7)³

يبدو أن هذه الفتوى تستلهم، كما يفهم من متن النص، فتوى سابقة للإمام ابن القيم الجوزية، وهذا أمر مقبول من الناحية العلمية والفقهية، غير أن ما هو مردود هو أن هذا الاستلham أو الاقتباس لا يتعدى ما هو نصي إلى ما هو سياق، مما يعني فصل فتوى ابن القيم عن سياقها المكاني والزمني الذي قيلت فيه، وهو سياق كان محكوماً بالحرب والقتال بين المسلمين والنصارى. ثم إن هذه الفتوى المعاصرة تقتضي مزيداً من التوضيح والإجابة عن أكثر من سؤال تثيره من مثل: ألم يقرّ القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم عقائد أهل الكتاب، وأمر المسلمين بعدم اتباع ما يتعارض منها وروح الإسلام، لكن في إطار من الاحترام والتسامح؟ أكُلُّ من يهنئ أهل الكتاب أو يتعامل معهم يعتبر بالضرورة راضياً عما يعتقدونه ويؤمنون به؟ ثم أية علاقة تربط الآية الكريمة من سورة الزمر التي تم الاستشهاد بها بمسألة تهنة النصارى؟

لعل قارئ هذا الشاهد القرآني يحسب لأول وهلة أنها نزلت في هذه المسألة، أو في نازلة قريبة من جنسها، غير أنه عندما يتصفح أمهات التفسير يكتشف أن هذه الآية ذات طابع عام يتعلق بمن يكفر بالإسلام. يقول الإمام الطبري؛ صاحب (جامع البيان) في تفسيره لشقّ من هذه الآية: "والصواب من القول في ذلك ما قال جلّ ثناؤه:

³ - بن العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، فتاوى العقيدة، جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن للنشر - الرياض، ط 1413 هـ، 44/3 - 46

(إن تكفروا) بالله أيها الكفار به، (فإن الله غني) عن إيمانكم وعبادتكم إياه، (ولا يرضى لعباده الكفر). بمعنى: ولا يرضى لعباده أن يكفروا به، كما يقال: لست أحب الظلم، وإن أحببت أن يظلم فلان فلاناً فيعاقب.

وقوله: (وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ). يقول: وإن تؤمنوا بربكم وتطيعوه، يرضى شكركم له. وذلك هو إيمانهم به وطاعتهم إياه، فكنى عن الشكر ولم يُذكر، وإنما ذكر الفعل الدالّ عليه⁴.

بناء على هذا، يتضح إذن، أنه لا أثر لتهنة النصارى في هذا التفسير لآية الزمر، التي ضمّنها المفتي فتواه، مما يجعل القارئ يتساءل عن السبب الذي دعاه إلى اعتماد هذا الشاهد القرآني في نازلة لا تمت بصلة إليه.

إن كتاب (أحكام أهل الذمة) لابن القيم الجوزية، ينبغي أن يُستوعب في السياق الذي أُلّف فيه، ويدرس في شموله وتماسكه، لأن كل فصل أو باب منه يُفرضي إلى الفصل أو الباب الموالي، وأي اجتزاء لتفسير منه وإسقاطه على واقع يختلف عن واقعه الأصلي، من حيث المكان والظروف والجنس، قد يفرضي إلى نتائج مناقضة لرسالة الإسلام الجوهرية. إن سبب تأليف هذا الكتاب الضخم (أكثر من 1700 صفحة) كان سؤالاً موجهاً إليه حول مسألة الجزية⁵، فلم يجب عنه في فتوى مبتورة أو اكتفى بنقل رأي إمام سابق، وإنما عمد إلى دراسة هذا الموضوع دراسة وافية ومعقدة من كل جوانبه الدينية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية، فكانت النتيجة هذا المؤلف القيم والنفيس. وما زال هذا السؤال المتعلق بالجزية وأهل الذمة يتكرر باستمرار، وي طرح مختلف التحديات والإشكالات في زمن متقلب ومغاير، غير أنه كلما عمد باحث إلى فهمه في سياقه الجديد فهما معقولاً لا يتعارض مع حقيقة الإسلام، إلا وأنهم بالتشبه بالنصارى وتم التشكيك في عقيدته!

ثم إن الإمام ابن القيم لم يتناول مسألة تهنة أهل الكتاب بأعيادهم الدينية بشكل مفصول، وإنما في إطار تتشابه فيه مختلف القضايا المرتبطة بأهل الذمة، وهو يدرك طبيعة المرحلة التاريخية والسياسية التي عاش فيها، وقد تعرض قبله لموضوع تعزية أهل الذمة، إذ توقف عند أقوال كثير من العلماء في ذلك، كحمدان الوراق والأثرم والفضل بن زياد وعباس بن محمد الدوري الذي سأل الإمام أحمد بن حنبل عن "اليهودي والنصراني يعزيني، أي شئ أرد إليه؟ فأطرق ساعة ثم قال: ما أحفظ فيه شيئاً". وقد أنهى هذه الفقرة بقول حرب لإسحاق: "فكيف يعزي المشرك؟ قال: يقول: أكثر الله مالك وولدك"⁶.

⁴- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: د. عبد الله التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، الجزء 20، ط 1/ 1422 هـ - 2001 م، ج 169/20

⁵- الجوزية، ابن القيم، أحكام أهل الذمة، رمادي للنشر، ط 1418/1 هـ - 1997 م، 9/1

⁶- المصدر نفسه، 439/1 و 440

أما فيما يخص قضية تهنة أهل الذمة، فقد صنفها ابن القيم إلى نوعين؛ أولهما عام يتعلق بتهنة الكتابي "بزوجة أو ولد أو قديم غائب أو عافية أو سلامة من مكروه ونحو ذلك وقد اختلفت الرواية في ذلك عن أحمد، فأباحها مرة ومنعها مرة أخرى، والكلام فيها كالكلام في التعزية والعبادة، ولا فرق بينهما، ولكن ليحذر الوقوع فيما يقع فيه الجهال من الألفاظ التي تدل على رضاه بدينه". أما النوع الثاني، فهو خاص يفترن بالتهنة بشعائر الكفر المختصة به، فهي "حرام بالاتفاق، مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول: عيد مبارك عليك، أو تهناً بهذا العيد ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثماً عند الله، وأشد مقتاً من التهنة بشرب الخمر وقتل النفس وارتكاب الفرج الحرام ونحوه".⁷

لعل الشق الثاني أكثر سريانا على كل من يقصد بالتهنة تعظيم عقائد الآخرين وتقديسها، وقد يحصل هذا من جراء الخوف من بطش النصارى، كما كان يحدث في مرحلة الاستعمار، أو من جراء الانبهار الأعمى بالآخر كما يجري مع بعض المثقفين المتغربين. أما في حالة المسلم الحقيقي، فلا يتم ذلك، بحكم العمل أو الدراسة أو علاقة الجوار (لا سيما في الغرب)، إلا من باب الاحترام المتبادل والتسامح المطلوب. ثم إن مسألة "التحريم بالاتفاق" تدعو الباحث إلى مزيد من التدقيق والاستقصاء؛ هل ثمة حقا إجماع بين فقهاء الإسلام السني، كما يقول ابن القيم، على تحريم هذه القضية أم على كراهتها أم على شيء آخر؟

إن ما يسترعي الانتباه، أنه قلما استعمل الفقهاء لفظة "التحريم" في مسألة تهنة أهل الكتاب بأعيادهم الدينية، إذا ما تم استثناء بعض فقهاء المذهب الحنبلي والشافعي، الذين يقولون بالتحريم الصريح كما ذكر الإمام البهوتي في كشف القناع على سبيل المثال لا الحصر، وقد سلك هذا المسلك الأئمة أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم الجوزية. أما بعض علماء المذاهب الفقهية الأخرى الذين تعرضوا إلى هذا الموضوع، فلا يحرمون هذا الفعل إلا بشرط أن يراد به تعظيم معتقدات أهل الكتاب وتقديسها، أما إذا تم ذلك على أساس المجاملة والاحترام، فيعتبرونه مذموما ومكروها. ورد في البحر الرائق أن أبا حفص الكبير (الحنفي) قال: "لو أن رجلا عبد الله تعالى خمسين سنة، ثم جاء يوم النيروز وأهدى إلى بعض المشركين بيضة يريد تعظيم ذلك اليوم، فقد كفر وحبط عمله وقال صاحب الجامع الأصغر إذا أهدى يوم النيروز إلى مسلم آخر، ولم يرد به تعظيم اليوم ولكن على ما اعتاده بعض الناس لا يكفر ولكن ينبغي له أن لا يفعل ذلك في ذلك اليوم خاصة ويفعله قبله أو بعده لكي لا يكون تشبيها بأولئك القوم".⁸ وقد سئل الإمام مالك ذات يوم عن الرجل يهدي لجاره النصراني مكافأة على هدية أهداها إليه، فلم يقل له بأن ذلك حرام، وإنما قال له: ما يعجبني ذلك!⁹ وذكر ابن عليش المالكي أن "المسلم الذي يقصد تعظيم غير المسلمين إن كان لغرض دنيوي فهو أثم فأسبق تجب عليه

⁷ - المصدر نفسه، 441/1

⁸ - الطوري، تكملة البحر الرائق شرح كنز الدقائق، المكتبة العلمية، الطبعة الأولى، 555/8

⁹ - ابن الحاج، المدخل، مكتبة دار التراث - القاهرة، 48/2

التوبة فوراً، وَإِنْ كَانَ لِرَفْعِ دِينِهِمْ تَعْظِيمُهُ فَهُوَ مُرْتَدٌّ يَسْتَتَابُ ثَلَاثًا، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ¹⁰. غير أن التهنئة في زماننا المعاصر لا يقصد منها لا التعظيم الدنيوي ولا الأخروي، وإنما تتم بغرض تبادل الاحترام وإفشاء التسامح.

هذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن أقوال السابقين وفتاواهم بخصوص مسألة تهنئة أهل الكتاب بأعيادهم الدينية تقتضي، من جهة أولى، أن تُفهم في سياقها المكاني وظروفها التاريخية والسياسية الخاصة بها، وتتطلب، من جهة أخرى، مزيداً من التمهيد الفكري والتفكيك اللغوي والسند الفقهي، قبل إصدار أي فتوى بالحرمة أو الكراهة أو غيرهما. وعلى هذا المنوال سار مجموعة من العلماء والدعاة المعاصرين المعتدلين (محمد رشيد رضا، محمد السيد دسوقي، يوسف القرضاوي، مجلس الإفتاء الأوروبي وغيرهم)، الذين اعتبروا مسألة التهنئة جائزة ما لم تتعارض مع كنه العقيدة الإسلامية، ومالم ينجم عنها تعظيم بعض الرموز والمعتقدات غير الإسلامية. ويرى الشيخ القرضاوي أنه ينبغي أن تُراعى الأوضاع العالمية الجديدة، التي تدعو إلى إعادة النظر في تحريم تهنئة النصارى، لذلك، فهو يجيز "ذلك إذا كانوا مسلمين للمسلمين، وخصوصاً من كان بينه وبين المسلم صلة خاصة، كالأقارب والجيران في المسكن، والزملاء في الدراسة، والرفقاء في العمل ونحوها، وهو من البر الذي لم ينهنا الله عنه، بل يحبه كما يحب الإقساط إليهم {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (المتحنة:8)، ولا سيما إذا كانوا هم يهنئون المسلمين بأعيادهم، والله تعالى يقول: {وَإِذَا حُيِّئْتُمْ بِهِ فحَيُّوا بِأَحْسَنِّ مِمَّا أُورِثُوهَا} (النساء:86)".¹¹

3- تداعيات سلبية على راهن المسلمين في الغرب:

إذا كانت فتاوى تحريم تهنئة أهل الكتاب تبدو جد عادية، لا سيما في الدول الإسلامية التي لا تعيش فيها أقليات دينية أجنبية، فإن الأمر يتخذ بعداً مغايراً، سواء في الدول الإسلامية المتعددة الأديان أم في العالم الغربي، حيث يستقر ملايين المسلمين الذين تقتضي منهم ظروف العمل والدراسة والجوار الاحتكاك الدائم بغير المسلمين، مما يجعل مسألة التهنئة سلوكاً عادياً ينم عن الاحترام والمجاملة والتسامح، وهذا ما لا يسيء إلى الإسلام قيد أنملة كما يدعي أصحاب الفهم الظاهري والسطحي، بقدر ما يُقر الوجه المشرق لهذا الدين الذي جاء ليحرر الإنسانية ويواخي بين الناس.

لكن كيف السبيل إلى ذلك، إذا ضاق أفق بعض المسلمين وانكمش تفكيرهم وتقهر استيعابهم؟ ألا ينم ذلك عن ازدواجية غريبة في التعامل مع الآخر؛ فهم يدعون أن الإسلام دين رحمة واحترام في حين أنه لا أثر لذلك في سلوكياتهم اليومية؟ فأين نحن من قول الخليفة الأول؛ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو يوصي جيوشه

¹⁰ - ابن عليش، فَتْحُ الْعَلِيِّ الْمَالِكِ فِي الْفُتُوَى عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ، جمع: علي بن نايف الشحود، 17 رمضان 29/1428 سبتمبر 2007، ص 341

¹¹ - القرضاوي، فتوى تهنئة النصارى، الموقع الرقمي للشيخ د. يوسف القرضاوي.

المتوجهة إلى اليمن مرددا: "وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له".¹² ألا يعني ذلك اعترافا صريحا بمعتقدات الآخرين، واحتراما واضحا لاختيارهم العقيدي، رغم تعارضه مع تعاليم الدين الإسلامي، في الوقت الذي كان يملك فيه القوة الكافية لأن يحق أولئك الرهبان، أو يطاردهم خارج حدود البلاد الإسلامية؟

إن المسلمين في الغرب صاروا اليوم فريسة للفتاوى العابرة للقارات التي تصاغ في بيئة تختلف جذريا عن البيئة التي يعيشون فيها؛ لذلك فهم في مسيس الحاجة إلى "فقه معاملات" متطور، يأخذ بعين الاعتبار السياق الجديد الذي يوجدون فيه، على ألا يتعارض مع الجوانب القطعية في الإسلام؛ عقيدة وشريعة، وقد كان هذا ديدن المسلمين الأوائل الذين احترمو أعراف وتقاليد البلدان الجديدة التي فتحوها، وعملوا جاهدين على جلب المصالح للناس ودرء المفساد عنهم. وهذا ما أصبح يقتضيه واقع المسلمين في المجتمعات الغربية، التي ضمنت لهم جملة من الحقوق المدنية والقانونية والاقتصادية والاجتماعية مقابل واجبات مفروضة على الجميع دون تمييز أو استثناء، وتتضافر هذه الآليات التنظيمية والقانونية من أجل تحقيق مواطنة فاعلة تتأسس على الإسهام الإيجابي والتسامح الفكري والاحترام المتبادل، ولعل تبادل التهاني والهدايا يعتبر شعبة أساسية من شعب هذه المواطنة الراقية.

ولئن يظهر للبعض أن المسلم في الغرب يستطيع أن يتجنب مظاهر الاحتكاك مع غير المسلمين، حتى لا يقع فيما يؤثر على عقيدته، غير أن ذلك قد يؤدي لا محالة إلى نتائج معكوسة، فينعزل عن الواقع الذي يعيش فيه، مما قد يترتب عنه ضياع العمل والتوقف عن الدراسة ومقاطعة الجيران وهلم جرا. وهذا ما يتناقض مع رسالة الإسلام التي تجعل من كل مسلم داعية إلى الخير والإيحاء والتوحيد، وإذا ما حكمت الأقليات المسلمة على نفسها بالانطواء والتفوق في تجمعات مفصولة عن المجتمع، فإن من شأن ذلك أن يسهم في تصاعد الحذر والقلق منهم عند باقي شرائح المجتمع، وهكذا تنشأ بالتدريج أسباب ظاهرة الخوف من الإسلام عند الآخر، الذي يبدو له هذا الدين غريبا ومغايرا، بل ومتعارضا يتناقض خطابه الظاهري مع الباطني، وجانبه النظري مع التطبيقي، ومقاصد دعوته مع تجليات واقعه..! فهو بذلك، حسب ظنه، دين ينطوي على تناقض وجودي وسلوكي عميق، حيث يتحدث فيه المسلمون عن رحمة الإسلام وتسامحه، في حين ينزلون عن المجتمع الذي يعيشون فيه، ويشكلون طرفا أساسيا فيه؛ فكيف تكون رحيمًا بالغير دون أن تتواصل معه؟! وكيف تكون متسامحا مع الآخر، وقد اخترت الابتعاد عنه والتعصب لرأيك وثقافتك وقبيلتك!؟

إن مسألة تهنة أهل الكتاب بأعيادهم الدينية وغيرها من الممارسات الاجتماعية والثقافية التي لا تؤثر في عقيدة المسلم، أصبحت تقتضي اليوم مراجعة جذرية من قبل علماء الإسلام بمختلف توجهاتهم ومشاربهم، قصد

¹²- الطبري، أبو جعفر بن جرير، صحيح تاريخ الطبري الخلافة الراشدة، تج: محمد بن طاهر البرزنجي، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط1428/1هـ - 2007م، 107/3

الإجابة عن جملة من التحديات التي بات يشهدها راهن المسلمين، وإن كانت تبدو جد عادية بالنسبة إلى الكثير من الدعاة و"رجال الدين"، إلا أنها تخلق مختلف المشاكل النفسية والاجتماعية والتواصلية بالنسبة إلى المسلم الغربي العادي، سواء المهاجر أم الأصلي، الذي تضعه العديد من الفتاوى الفقهية الجاهزة في مفترق الطرق. ولا أدل على ذلك من مسألة التهنة التي تطرح شتى الحالات الإشكالية التي قد تخرج أي مسلم. وهذه بعض النماذج الحية حول ذلك:

- موظف مسلم يعمل في شركة ما طوال عقود من الزمن، حيث جميع حقوقه المادية والقانونية والمهنية مضمونة، تؤدي له كيفما تم الاتفاق معه في البداية، يعامله الجميع باحترام كبير، بل وأكثر من ذلك، فإن مدير الشركة أو صاحبها يضع فيه الثقة التامة، ويعول عليه في أكثر من موقف. تحتفل الشركة أحيانا بالمناسبات الدينية، حيث تنظم حفلات غداء أو عشاء تضع فيها جناحا للأكل الحلال خاصا بالموظفين والعمال المسلمين، كما أنها تقدم لهم في نهاية كل سنة ميلادية هدايا بالمناسبة. كيف ينبغي لهذا الموظف المسلم أن يتعامل مع هذا الموقف المحرج، الذي يتكرر كلما حلت مناسبة معينة؟ هل يجب عليه، وفق فتاوى التحريم، أن يقاطع تلك الأنشطة ولا يشارك ذويها ولا يهنئهم، ولو من باب الاحترام المتبادل والمجاملة المطلوبة؟ هل يتحتم عليه أن يترك ذلك العمل، ويبحث عن بديل آخر صعب المنال، لا سيما في زمن الأزمة الاقتصادية، أم يكتفي بالتعويضات الاجتماعية بعد إجراءات طويلة لا تخلو من اللف والدوران والكذب؟

- طالب مسلم يدرس في كلية الطب، حيث يتابع تخصصا علميا نادرا، سوف يقدم بواسطته في المستقبل القريب خدمات جليلة للمسلمين. يقتضي منه هذا التخصص الاحتكاك الدائم مع الأساتذة والأطباء والطلبة، إما أثناء تلقي المحاضرات والدروس، أو أثناء القيام ببحوث مشتركة مع زملاء الدراسة، أو أثناء التدريبات داخل مختبر الكلية أو في المستشفى. هذه الأنشطة وغيرها تتطلب منه ربط العديد من العلاقات الأساسية لدراسته، سواء داخل الفصل أم خارجه، وإلا فإن أداءه الدراسي سوف يكون هزيلا، مما قد يسبب له التخلي عن الدراسة. تُنظم في بعض الأحيان احتفالات بالأعياد الدينية داخل الكلية وفي المستشفى الذي يتدرب فيه، وتبعث له الدعوة للحضور، مما يضعه أمام موقف عويص؛ هل يقبل الدعوة ويهنئ زملاءه بالمناسبة ويشاركهم ولو للحظات قصيرة، أم يتجاهل ذلك ولا يعير أي اهتمام لدعوتهم؟ غير أنه إذا ما تكرر، مثل هذا التصرف بدون أي مبرر معقول، قد يُعامل بالمثل، فيؤثر ذلك سلبا على دراسته وتدريبه ومستقبله المهني. وقد سبق له أن استفتى ذات يوم أحد الأئمة بخصوص هذه المسألة، فنصحته بأن يتوقف عن الدراسة!

- شاب مسلم اضطرت له حالة الحرب الشرسة التي يشهدها بلده إلى أن يهاجر إلى إحدى البلدان الأوروبية، حيث قدم طلبا للجوء السياسي غير أنه بعد مدة من الانتظار رُفض هذا الطلب. حاول أن يبحث عن حل آخر لتسوية وضعيته القانونية، وهو الزواج من مسلمة، إلا أنه فشل في أن يجد أسرة مسلمة ترضى بأن تزوج ابنتها لهذا اللاجئ السياسي المقطوع من شجرة! فما كان عليه إلا أن يبحث عن امرأة كتابية للزواج منها، ومن ثم

دعوتها إلى الدخول في الإسلام. وبعد مدة وجيزة تعرف على امرأة نصرانية قبلت أن تتزوج منه بشكل قانوني، فساعده على تسوية وصعيته القانونية، كما وفرت له كل شروط الحياة الكريمة، إلا أنه كان يعيش على المستوى النفسي صراعا عميقا وشرسا، لا سيما أثناء احتفالات الأعياد الدينية التي كانت تقيمها عائلة زوجته، فكانت تتم دعوتها من فينة إلى أخرى، مما كان يضطره إلى تهنتهم بذلك والحضور معهم. كان ينوي بعض الأحيان مقاطعة تلك المناسبات، لكنه عندما كان يفكر في التضحيات الجسيمة التي قامت بها زوجته من أجله، يحس بالحيرة وتأنيب الضمير والعجز عن أن يفهم ما يجري حوله! لأن بعض التفسيرات الفقهية المتعلقة بفقه التعامل مع غير المسلمين كانت تنغص راحة باله، وتوقعه في ما يشبه التناقض؛ كيف يمكن له أن يكون مثالا للمسلم الصادق في عيون زوجته وعائلتها، إذا ما قام بالتماس الأعذار وافتعال الأسباب حتى يتجنب الاحتكاك بهم في مناسباتهم الدينية وغير الدينية؟!!

هكذا يجد الكثير من المسلمين في الغرب أنفسهم في وضعية إشكالية تحكم عليهم بالعيش في سلوك مزدوج، يجعل شخصيتهم منقسمة، ما بين الولاء التام للفتاوى الضيقة العابرة للقارات التي تختزل الإسلام كله في حفنة من الجوانب الشكلية والسلوكية، وهذا ما يسفر عنه ظهور نماذج إسلامية منطوية على نفسها تقدم صورة مشوهة حول حقيقة هذا الدين، مما يزرع هواجس الحذر والخوف والارتياح لدى الآخر. وما بين الانفتاح الضروري على الواقع الذي يعيشون فيه، والمساهمة الفعالة في مختلف مجالاته الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والتعامل الإيجابي مع غير المسلمين في إطار من المواطنة والتسامح والاحترام، وهذا ما يتفق قلبا وقالبا مع دعوة الإسلام السمحة، التي أرسلت رحمة للعالمين.

فهل فكر بعض فقهاءنا في التخلي عن آفة الجدل العقيم الذي لا طائل من ورائه، إلا تمزيق وحدة المسلمين إربا إربا، وتصعيد حدة الرهاب من الإسلام؟

المصادر والمراجع المعتمدة:

- القرآن الكريم
- ابن الحاج، العبدري المالكي الفاسي، المدخل، مكتبة دار التراث - القاهرة، الجزء الثاني (بلا تاريخ)
- البخاري، أبو عبد الله، صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم عاشوراء، ح 2004، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط1/1423 هـ - 2002م
- بن العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، فتاوى العقيدة، جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السلیمان، دار الوطن للنشر - الرياض، ط 1413هـ
- بن عثيم، محمد بن أحمد، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، جمع: علي بن نايف الشحود، 17 رمضان 29/1428 سبتمبر 2007
- الجوزية، ابن القيم، أحكام أهل الذمة، رمادي للنشر، المجلد الأول، ط1/1418هـ- 1997م
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: د. عبد الله التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، الجزء 20، ط1/1422 هـ - 2001م
- الطوري، تكملة البحر الرائق شرح كنز الدقائق، المكتبة العلمية، الطبعة الأولى، الجزء الثامن (بلا تاريخ)
- القرضاوي، فتوى تهنئة النصاري، الموقع الرقمي للشيخ د. يوسف القرضاوي.
- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن، كتاب الفضائل، ح 2363، دار طيبة - الرياض، ط1/1426 هـ - 2006م



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com